رواية قصيرة

صاحب مِلطاس

أحمد سليمان أبكر

صاحب مِلطاس

رواية قصيرة

أحمد سليمان أبكر

دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني
kesasandhekayatpub.blogspot.com

العنوان: صاحب مِلطاس (نبذة)

النوع الأدبي: رواية قصيرة

المؤلف: أحمد سليمان أبكر

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2022

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2022

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

إهداء

إلى روح جدتي معتوقة بنت محمد نور، تلك العابدة الزاهدة، الحكيمة التي كانت ترعى العهود وتحسن الجوار، فسلام عليها في الخالدين الذين أسكنهم ربهم جنات النعيم.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مضمون أحداث هذه الرواية هو ما كنت اتلقاه بشغف شديد من قصص وأحاجي الحبوبات (الجدات)فهن كن بارعات الفن،دقيقات التصوير يمزجن في سردهن بين حقائق الحياة الواقعة وسابحات التخيل الجامحة، ولعب التصورات الفكهة، فتخرج قصصهن حلوة الخيال والذوق، فكهة المنحى والأسلوب، وذات خيال يكاد يصل بها إلى عالم الأساطير. دارت أحداث ووقائع هذه الرواية في عهد مملكة سنار (السلطنة الزرقاء) في سهلها الشرقي حيث الغابات الكثيفة والجبال الصخرية المتناثرة هنا وهناك،وما من جبل من تلك الجبال وإلا عند أقدامه قرية أنس وفي قمته مملكة جن كما كانوا يزعمون.كنت كثيرًا ما أجلس إلى جدتي لأمي(معتوقة) التي ولدت في نهاية العهد التركي وتعي الكثير من أخبار وقصص المملكة السنارية، أتباع ما ترويه بشغف لأسجله في ذكرة الطفولة المتعطشة للمعرفة ولكل ما هو جديد وغريب.استوقفتني كثيرًا حكاية الشيخ الذي حل في قرية صغيرة من قرى تلك المنطقة في ذلك الزمان وكان من الصالحين كما ذكر.تقدم بي الزمان،تأثرت بعالم الرويات،قررت الانتقال من حاضري إلى ذلك الزمان واستنطاق القرية (ملطاس) عن ذلك الشيخ الغريب الذي حل بها وكيف أنه أضحى شيخها الصالح الذي التف حوله كل أهل ناحية بل وتوارث مكانته من بعده ابنه،

ومن ثم حفيده الذي هو بطل هذه الرواية التي بدأت من القرية (ملطاس) وانتهت إليها.

المؤلف

مِلطاس

نقف الآن على مشارف مِلطاس في زمانها القديم وقد تناثرت أكواخها المصنوعة من الطين وسيقان الأعشاب الجافة هنا وهناك وبين فروجها مجاميع الأشجار الباسقة التي تتمدد في طرقاتها فتتألف منها دهاليز ضيقة يضن أن تنفذ إليها أشعة الشمس ولا تكاد أن تصل إليها أضواء النهار،وتزحف تلك الأشجار الوارفة حتى تتسلق جبلها الصخري الذي يحتضنها من جهتي الجنوب والغرب،أما في جهتي الشمال والشرق فيتمدد واديها الكبير الأفيح، الملتف الأشجار، الجميل الحصى، الكثير المرعى، الغمض المسعى، الذي تجتمع إليه السيول وتتدفق فيه العيون وتزدحم فيه المزارع.

دنا الأصيل ووقف قرص الشمس وقفة الوداع على قمة الجبل متوهجًا كاللهب الأحمر وهو ينشر ذراته الذهبية في عرض الفضاء ولا زالت قطع الأنوار تتساقط من بين فجوات الأغصان لتستحيل الأشجار في سكون ذلك الجو وهدوئه إلى أحجار جامدة من الزمرد والياقوت ويخيل للناظر إلى الجذوع المائلة كأنها بقايا بركان قديم كان قد غمرها في سالف العهد ثم انحسر عنها فإذا هي أعمدة صدئة من البرونز القائم، نزلت الطيور بتلك الأشجار الساكنة الظليلة لتقضي فيها سواد ليلها، ضجت القرية بأصوات الأغنام القادمة من المرعى التي تقفى آثارها ورعاتها شيخ في الأربعينات من العمر،متوسط الطول،أبيض اللون،صبوح الوجه،ذو لحية كثة خالطها شيء من شيب،وقور الملمح كأنه سيد قوم جار عليه الزمان، يرتدي قفطان وعمامة من

الدمور ، ينتعل حذاءً من الجلد المدبوغ،يحمل في يده اليمنى مسبحة واليسرى عصا.

جدّ الشيخ في اللحاق برعاة الأغنام لكنه لم يفلح،اهتدى بأثرهم،وقف على مشارف القرية، رأي مجموعة من الصبية يلعبون على مقربة منه،دنا منهم،سألهم عن دار تستضيفه،ذهبوا به إلي دار شيخ القرية.

مكث الشيخ الغريب قرابة شهر ونيف، لم يرى من أهل القرية إلا الود والإحسان الذي أنساه مرارة الغربة ووحشة الطريق،استلطف العيش في القريةالوديعة،وسط أهلها الطيبين،وهواءها العليل،وخيرها الوفير استأذن شيخها (ود أبو طاقية) للإقامة عندهم،رحب به الأخير ومنحه دارًا ليقيم فيها،عزم الشيخ الغريب على العمل،اتخذه أهل القرية راعيًا لأغنامهم،يخرج بها في الصباح الباكر ويعيدها لهم وقت الأصيل،ولما يتوارى النهار،ويضمحل النور،وتلم الشمس وشاحها عن سهول القرية،ويسكن الليل، وترقد الحياة في القرية، وتُطفأ السرج في المنازل في تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء الموحدة ببين أرواح النيام وأحلام اللانهاية يتسلل إلى مغارة الجبل،يتربع في وسطها، مستقبلًا القبلة،متخمًا بالسكينة،هامسًا بالأذكار،مستغرقًا في الملكوت الأعلى والظلمة من حوله تذوب شيئًا فشيئًا،وتناسب بدلًا عنها أشعة عجيبة متداخلة تضيء المغارة،وتتلاشى أطرافها في زرقة قمة الجبل الصافية. لقد رأى الكثيرون من أهل القرية هذا المشهد العجيب؛منذ أن حل

هذا الضيف الغريب البلدة،ولما تقصوا أمره، أدركوا صلاحه وورعه، فجلّوه وصدّروه إماما لهم يعلمهم ويرشدهم، وقد أسموه الشيخ حمد الخفيان.

السلطان

لاح الفجر،سال النور بين دقائق الأثير، ابتسم الفضاء معلنًا مقدم يومٍ جديد،الشيخ جالس في كوخه،دخل عليه رجال مساكين كأنهم هياكل عظمية نحولًا وهزالًا، ليس عليهم من الثياب إلا خرقٌ باليةٌ تدور بِأحقائهم، فجثوا على ركابهم بين يديه لاهثين وأنشأوا يقولون له: الرحمة يا شيخنا فإننا نكاد نموت جوعًا وقد مر بنا يومان ونحن نجوب الأحراش والغابات نتوارى مرة ونظهر أخرى، ونقتات كل ما هو فوق التراب؛ مخافة أن تقع علينا عيون بعض الفضوليين فيسلموننا لجند السلطان ،والموت أهون علينا من أن نقع في قبضة السلطان، فهو رجلٌ قاسٍ غليظٌ لا يزال يأمر جنده بجلدنا وتمزيق لحومنا بسياطهم ومن ثم حبسنا،كلما عجزنا عن سدد ضريبة العام، وها نحن قد عجزنا هذا العام بسبب الجدب الذي أصاب أرضنا،ثم كشفوا ثيابهم عن أجسامهم وأشاروا إلى مواضع الضرب منها فإذا خطوطٌ حمراء ملتهبة لا يستطيع نظر الناظر أن يثبت أمامها لحظةً واحدة،ثم قالوا له أنهم سمعوا الناس يتحدثون عنه حديثًا حسنًا ويقولون أنه محسن،وعطوف فضرعوا إليه أن يحول بينهم وبين هذا الشقاء!

ألقى الشيخ عليهم نظرة شفقة وعطف، ودموعه تنحدر على خديه انحدار المزنة الهاطلة،حتى تبللت لحيته،قام من مجلسه،خرج بهم إلى الناس الذين احتشدوا

أمام الكوخ فور سماعهم للخبر، رفع رأسه ونظر إلى عيونهم نظرة من يستصغر الكلام المتعارف بين البشر،نظرة من لا يرضى بأن تكون النصرة روحًا في أجسادٍ من الألفاظ، ثم أشار علي الجميع بأن يتبعوه.

السلطان قصير بدين داكن السمرة،ترتسم على وجهه قسمات الشدة والبأس، يأنس ويطرب لمن يجلس بين يديه وهو له مادحًا، والويل كل الويل لمن يخالف رأيه أو يعصي أمره،جلس على الكرسي الملوكي كعادته، بلغت الشمس ضحاها في شرفة قصره المنيف المبني من الطوب الأحمر فوق الجبل الذي يتوسط البلدة، وهو يرتدي إزار ورداء وتعمر رأسه الطاقية المكوكية (أم قرينات) وقد أحاطت به حاشيته.

القوم يتحدثون،توقف السلطان عن الكلام فجأة وقال:

أتسمعون ما أسمع؟

قالوا: بلى يا مولاي.

أشار إلى الحاجب وقال له:

أيها الحاجب! أخرج وأنظر ماذا هناك؟

خرج الحاجب،دار ببصره في كل الجهات،حدق جهة الشرق، رأي عارضًا كثيفًا يشق الأفق ويحجب قرص الشمس، ويصدر ضجيجًا مفزعًا، هرول إلى الداخل وهو يصرخ قائلًا:

مولاي السلطان..مولاي!

السلطان:

ماذا هناك أيها الحاجب؟

الحاجب:

عارض ضاج قادم نحونا يا مولاي!

نزل السلطان وحاشيته أسفل الجبل وهو محاط بالجند في كامل زيهم الحربي، تكشّف الأمر، ظهر ركب عجيب يتقدمه الشيخ الخفيان الذي وقف وركز عصاه ومن خلفه جموع الناس تموج كالبحر الزاخر وقد أظلها غبار سيرها الذي سد الأفق،صمت المكان،تفرّس السلطان في الشيخ وموكبه،ارتعد جسده فزعًا حين رأي صخرةً تندفع من بين رجليه،وترتفع فوق رأسه، ولكن قبل أن تهوي عليه، ضربها الشيخ بعصاه ضربة أعادتها إلى موضعها،عندها جثا السلطان على ركبتيه وحبى حتى أدرك الشيخ،وقبل الأرض بين يديه،ثم أمر بإلقاء ضريبة ذلك العام عن كاهل الجميع.

رؤيا

صاهر الشيخ الخفيان الشيخ ود أبو طاقية،أنجبت ولدًا أسماه بركات،خلفه بعد رحيله إلى الدار الآخرة،وقد صار قطب زمانه يأوي إليه الناس من كل حدب وصوب، يتبركون بدعواته الصالحات، يحمل الأعراب إليه كل شيء ليباركه لهم حتى أنهم يحملون جنائزهم ليدفنوها إلى جوار ضريح والده الشيخ الخفيان.

تزوج الشيخ بركات من بنت خالته،أنجبت ولدًا أسماه حمد على اسم والده الشيخ حمد الخفيان،ترعرع حمد الحفيد في كنفه والده، وهو ينمو في جو الأيام نمو النبات اليانع، وينمو معه طيب الأخلاق وحسن السجايا، حتى أضحى شابًا بديع الوسامة، فائق الكمال، عز في الحسن عن مثال الشجاعة تلوح بين عينيه، والشجاعة تشهد له لا عليه، وتميل إليه كل القلوب، لدماثة خلقه، وحلاوة قوله، وغزارة علمه.

انتصف الليل، ألقت السماء بذور الغد في أعماق ظلمته، تعبت أجفان حمد من أشباح اليقظة، تمدد في مرقده يطلب النوم، وما هي إلا غمضة الطرف حتى شعر بأنه يتحرك قليلًا قليلًا، ثم طار، فتح عيني، فرأي طائرًا أشبه شيءٍ بالنسر في خلقه والقبَّة في ضخامتها واستدارتها،وما زال ذاهبًا به في أفق السماء، ثم رنَّق لحظةً في الهواء، ثم هبط إلى قمَّة الجبل، فأسرع بالانحدار عنه، وهنالك أحسس بسلسبيلٍ باردٍ من الأمل يتسرَّب إلى قلبه فينقع غُلَّته، ويطفئ لوعته؛ لأنه رأي السفح الثاني من الجانب الآخر ورأى مروج خضراء تمخض جانبها عن نأمة، وحمل الهواء عطر حي واترفع موسوم بالشيخوخة يقول: توكلي على الله.

وعند القرب وضح أن الشيخ هو جده الشيخ الخفيان الذي نظر في عينيه نظرة طويلة غريبة، نظرة محبة وشفقة وخوف، نظر نبي يرى في أعماق الأرواح ما تعرفه الأرواح، ثم ارتعشت شفتاه قليلًا، ولكنه لم يقل شيئًا ثم تركه، وسار مبتعدًا عنه وهو ما زال يرمقه بتلك النظرة الغريبة حتى تلاشى في الأفق، تلك النظرة التي لم

يفهم معانيها حتى عتق نفسه من عالم المادة والذوات وطارت إلى مسارح الملا الأعلى حيث تتفاهم القلوب بالنظرات وتنمو الأرواح بالتفاهم، عندها أدرك أنه سيواجه المجهول ويصافحه، ويرمي بنفسه في خضمه، وأن نظرات جده الحفيان تحمل سًرا عجيبًا، ينبذ الأمن والسلامة.

الأيام تتلاحق، ثمة مصير يتخايل له عن بعد؛لكنه قادم،جيوش الظلام تتحرك، تريد أن تطمس قبسات النور في زوايا ملطاس وأزقتها،مرض والده الشيخ بركات بحمى لم تنفع في علاجها أدوية طبيب ولا وصفات عطّار،فانتقل إلى جوار ربه،ثم أصيبت أمه بالحمى هي الأخرى وتدهورت صحتها وهي ترنو إليه صامتة، وتعجز حتى عن البكاء، وما زالت كذلك حتى أسلمت الروح في جوف الليلة السابعة من رحيل الشيخ.

أرخي الليل سدوله،تسامى القمر إلى وسط السماء مرسلًا أشعته الفضية التي ردت سهام الليل على أدبراها، دخل مغارة جده التي كان يتعبد فيها، توسطها،اشتدت الظلمة أمام عينيه،حجبت عن ناظره كل شيء، تمدد على الأرض،انقضى الهزيع الأول من الليل،انحدر إليه من ثقب صغير في سقف المغارة خيط أبيض دقيق من شعاع القمر،استقر بين يديه،أنس به أنس الغريب بالغريب، وإنه لكذلك وقد رنقت في عينه سنة من النوم،سائح في الأرض تعلو به الوهاد وتخفضه الوديان،ويطوي القفار ويعبر الأنهار ويرد آجن الماء

وصفوها،ويقتات يابس الثمار ورطبها، فإذا لاح له ظل شجر أو شاطئ غدير أو سفح جبل أوى إليه ليخذ قسطًا من الراحة ثم عاد إلى شأنه.

العفريت

سفح جبل صلد تشبثت في صخوره ثلاث شجرات كبيرات داكنات الخضرة،عزم على قضاء ليلته في ذلك المكان على أن يواصل السير في الصباح الباكر،استغرق في النوم لشدة ما به من تعب،أخذت الأرض ترتج من تحته، سمع دويًا قادمًا من أعلى الجبل، سطع من بين تلك الشجرات الثلاث نورًا خرج من بين ثناياه دخان صعد إلى عنان السماء،مشى على وجه الأرض، تكامل واجتمع،ينتفض عفريتًا طويل القامة، عريضة الهامة، له عينان كأنهما شعلتان من نار، ارتعدت فرائصه،تشبكت أسنانه،جف ريقه، اقتراب العفريت منه،نظر إليه بعينين كالشرر في ظلمة الليل، تسمر في مرقده،جمد الدم في عروقه،خرس لسانه بأن ينطق بتعويذة أو حوقلة؛ نفث العفريت في وجهه،سكن مغشيًا عليه، أفاق من قفوته،وجد نفسه في غابة ذات أشجار كثيفة متشابكة، أخذ يفرك عينيه ويبحلق بهما أهو في حلم أم علم؟ نهض متثاقلًا،تجول في أرجاء الغابة،أدرك أنه في جزيرة تحيطها مياه البحر من كل جانب،جلس غارقًا في حيرته،أقبل الليل،حدثته نفسه بالبحث عن مأوي يقيه شدة البرد وشر الوحوش،لاحت له مغارة،مشي إليها،دخلها متوكلًا،توسد صخرة من صخورها،استغرق في نوم عميق، استيقظ مع طلوع الفجر،خرج يمشي بين الأشجار المتشابكة خذرًا يترقب،دبت الحياة

بتفتح الأزهار من حوله وزقزقة الطيور فوقه وخرير الماء من تحته، ذهبت عنه الوحشة،بدأ يشعر بحاجته إلى الطعام، عمد إلى إلتهام ثمار الأشجار التهامًا.

حل الظلام ثانية،دار بعينيه حول نفسه، فإذا قطع سوداء مظلمة تدجي وتتكاثف من حوله، يلتمس بعضها في أحشاء بعض، إذا هو نفسه قطعة من تلك القطع هائمة بينها هيمان الروح الحائر في ظلمات القبور،تمدد على الأرض،يسمع من بعيد صرخات الضبع ونعيق البوم،هبت الريح، بدأت الغيوث تتساقط،شعر وكأن الأرض تشقق من تحته،أبصر من خلال وميض البرق شجرة بعيدة ضخمة ذات أوراق كثيفة تتمايل حول جذعها،هرول إليها دون أي اكتراث بالأمطار أو الرعد وهو يتخبط في الأشجار ثم يسقط على الأرض ويسارع النهوض،لم يعد عاجز أو قلق ولم يكن يشغله شيء سوى الوصول إلى الشجرة فقط،إنها معركة من أجل البقاء،وصل وهو يلهث بقوة ولا يقدر على التنفس، لم تتوقف الأمطار عن السقوط، لم يكن يشعر بشيء سوى أنه نام من فوره تحت الشجرة، إلا أن حلمًا مفزعًا اعتراه في نومته،نهض فزعًا،نظر حوله، عرف أن المكان لا يزال غارقًا في الظلام،عاد للنوم من جديد.

بدأت الشمس ترسل خطوطها الصفراء المتلألئة عبر الغابة من اتجاه الشرق،هو مستند إلى جزع الشجرة،لامست جسده خطوط الضوء الشاردة من بين فرجات الأشجار،شعر بجسمه كله يهتز وبالدم يذوب في عروقه،شعر براحة شديدة وأمل يخالج نفسه في الخروج من هذا العالم المجهول.

تبدد شعاع الأمل شيئًا فشيئا بعد أن انقطع المسكين عن العالم كله خيره وشره ولم يكن بينه وبينه من صلة إلا أشعة الشمس التي تتسلل خلسة لتزوره كل صباح،وما مر به على حاله شهر واحد حتى نسي نفسه ونسي العالم الذي كان يعيش فيه والعالم الذي انتقل إليه ونسي الليل والنهار والظلمة والنور والسعادة والشقاء، وأصبح في منزلة بين منزلتي الحياة والموت، فلا يفرح ولا يتألم ولا يذكر الماضي ولا يرجو المستقبل، ولا يعلم أهو جسد يتحرك أو خيال يسري،أخذ يجوب الغابة طيلة يومه ويسكن في الليل، وفي ليلة من الليالي لاح له من على البعد ضوء خافت،أسرع يلتمس الطريق إليه ،اقترب منه،تملكه شيء من السرور، إذ تبين له أن الضوء ينبعث من نافذة كوخ صغير؛دار حول الكوخ،عثر على بابه، أخذ يطرقه بقوة، وبعد لحظات سمع وقع أقدام تقترب منهُ،فتح الباب،ظهر أمامه رجل طاعن في السن، وقف صامتًا،لم ينبس بكلمة،روى له قصته أشار عليهم بالدخول، دخل وراءه أخذه العجب وتملكته الدهشة من صمت ذلك الرجل،تبع الشيخ إلى الداخل،قاده إلى إحدى غرفتي الكوخ، أعد طعامًا،ودعاه ليشاركه إياهها، فرغا من الأكل،أشار عليه الشيخ بالدخول إلى الغرفة الأخرى ليقضي ليلته.

في الغرفة سرير قديم،منضدة صغيرة،صندوق خشبي قديم، جلس في السرير،تملكه القلق والخوف من الغموض الذي يسود الكوخ وساكنه،أخذت تتقاذفه الهواجس والظنون، خطر له خاطر بأن يغادر المكان على الفور، غير أنه

لشدة تعبه فضل أن يرجئ ذلك حتى يتمدد قليلًا فوق الفراش وما كاد الفراش يحتويه حتى استغرق في ثبات عميق،انتصف الليل، استيقظ على صوت مفزع قريب منه، فتح عينيه أدارهما في أنحاء الغرفة، تبين له أن ما سمعه هو صوت ذلك الصندوق الخشبي القديم الذي يقبع في الغرفة،رأى الشيخ واقف بجانب الصندوق،أمسك بإحدى يديه مصباحًا صغيرًا بينما مد الأخرى فأخرج من الصندوق طرطورا أحمر ووضعه بعناية في رأسه، وضع المصباح على المنضدة الصغيرة،رفع ذراعه اليمنى في بطء وهو يقول:

إلى بلاد السودان.

سرعان ما اختفى الشيخ من الغرفة تاركًا له وقد جحظت عيناه وفغر فاه لفرط ما أصابه من دهشة ورعب، مضت دقائق وهو حائر لا يدري ماذا يفعل،خيّل إليه أنه في حلم، لكنه لم يلبث أن نهض من فراشه،وخرج من الغرفة في هدوء،أخذ يبحث في أنحاء الكوخ عن ذلك الشيخ لم يعثر له على أثر فيه، فقال في نفسه:

إن في الأمر سر وعليه أن يعرف هذا السر.

عاد إلى الغرفة،قلبه يفيض بالفزع،حانت منه التفاتة إلى الصندوق الخشبي، وجده مفتوحًا وفيه طرطور أحمر رائع وعلى غير وعي منه أخذ هذا الطرطور،تأمله قليلًا،وضعه على رأسه،رفع ذراعه اليمنى في بطء وهو يقول:

إلى بلاد السودان.

غرائب

أشدّ ما كانت دهشته عندما وجد نفسه على إثر ذلك في سهول مترامية الأطراف،يسير فيها وهو لا يدري إلى أين يسير ، يمر على آكامها وقيعانها كالطيف، ومع ذلك يشمل الفجر بغبطته الوردية ويرقص شعاع الضياء في مرح أبدي، يشعره بأنه عما قريب سيسمع أصواتًا، ويرى أشباحًا.

سار يوم وليلة، يتنكب الخطي من شدة الإعياء، علت الشمس،انتصف نهار يومه الثاني،رأي من على البعد كوخًا وسط القفار، سار إليه حتى أدركه، لكن يا هول ما وجد عند ذلك الكوخ،رجلًا ينوح ويبكي وإلى جانبه ثلاثة قتلى امرأة وطفلين وعنزة مذبوحة،جلس إليه يهدئه حتى كف عن البكاء، سأله عما جرى، حكى له قصته بأنه قبل عامين ولد له مولودًا، لم يملك حينها شيئًا غير هذه العنزة ليذبحها كعقيقة للمولود،لكن زوجته أثنته عن ذلك وقالت له أنها وصغيرها أحوج لضرع هذه العنزة من ذبحها وعليهما أن يدعوا الله أن ييسر حالهما وتكون العقيقة لمولودهما القادم إذا شاء الله،ولد المولود الثاني ولا شيء في الدار غير ذات العنزة فذبحها،ثم ذهب يحضر عودًا يعلقها عليه ليسلخها،ترك السكين بالقرب من الذبيحة،أخذ الولد الكبيّر السكين ذبح أخيه الرضيع في مهده، الأم ساعتها مشغولة بإشعال النار في الأثافي، ولما انتبهت وجدت الأخ قد ذبح أخيه، ثار الدم في عروقها،أخذت عودًا وضربته، مات الولد في الحال، أمسكت برأسها تولول وتصيح، سمع هو صراخها عاد مهرولًا ليجد الولدين قتيلين سألها

عما حدث، أخبرته بما جرى،اسودت الدنيا في ناظريه،ضربها بالعود،فأرداها قتيلة هي الأخرى.

صمت حمد من هول ما سمع،لكنه تمالك نفسه وقال للرجل هيّا نوارى هؤلاء الموتى الثرى.فرغا من الدفن عاد الرجل يبكي بشدة، ثم هرول بسرعة إلى مكان العنزة المذبوحة وهو يشير إليها ويصيح:

هذه العنزة هي السبب فيما حدث، فلابد أن ألقي بها في تلك البئر المهجورة وأخلص من شرها.

حاول حمد أن يلحق به ويمنعه لكن هيهات لقد خارت قواه وسقط على الأرض دون حراك من شدة الإعياء والجوع فهو لم يتذوق طعامًا منذ يومين.حمل الرجل العنزة وذهب بها إلى البئر ولمّا رماها كان قرنها قد علق بثوبه فهوى معها في البئر ولقي حتفه.

أخذ حمد يستغفر ويحوقل مما رأي، ثم زحف حتى أدرك الكوخ عله يجد فيه شيئًا يأكله، وجد خبزًا جافًا سد به رمقه وماء روى به عطشه، ثم استلقى وقط في نوم كنوم أهل الكهف لم يفيق منه إلا وأشعة شمس اليوم التالي قد ضربت بأطنابها البقاع،فنهض وغادر ذلك المكان

على عجل.

بعد ساعة من زمان رأي حمارًا يقف تحت ظل شجرة، دنا منه،تفحّص المكان جيدًا،أيقن أن هذا الحمار شريد لا صاحب له،ركبه وسار به يطوي الغفار حتى

وصل إلى قرية عند منتصف النهار، ما أن دخل القرية حتى هجم عليه جماعة من أهلها وأمسكوا به،أخذوه إلى بيت رجل فيها وقالوا له:

يا فلان...ألا ترى هذا الحمار؟

قال:

بلى.

قالوا:

أليس هو حمارك؟

قال:

نعم..أنه هو!

قالوا:

لقد وجدناه عند هذا الرجل.

وأشاروا إليه.

يبدو أنه من نهب مال ابنك ولربما قتله.

ثار الرجل،أمسك بتلابيب حمد وهو يصرخ في وجهه:

أين ابني، ماذا فعلت به.

وحمد واقف دون حراك ، لقد أخرست الحيرة لسانه،لم يفهم شيئًا مما يدور حوله،وما هي إلا لحظات حتى وجد نفسه أمام قاضي البلدة يوجه إليه ذات الاتهام الذي رماه به أهل القرية.

قال له القاضي:

يا هذا أنت متهم بنهب وقتل ابن هذا التاجر..ما قولك في هذا؟

نطق والعبرة تقص في حلقه:

سيدي القاضي، أنا لا أفهم شيئًا مما تقوله ويقولوه هؤلاء القوم

نهره القاضي وقال له:

أتريد أن تنكر وتنجو بفعلتك التي فعلت؟..هيهات هيهات أن تفلت من العقاب.

قال:

سيدي القاضي، أقسم لك إني لم أفعل شيئا.

القاضي:

إذن قل لي أين وجدت هذا الحمار الذي وجدوه بحوزتك؟

قبل أن يرد حمد على سؤال القاضي فإذا بجلبة في الخارج، قال القاضي:

ما هذه الجلبة التي بالخارج؟

قال الحاجب:

مولاي .. لقد جيء برجل يزعم أنه من قتل ابن التاجر.

القاضي:

أتوني به!

أُدخل الرجل وهو مطأطأ الرأس ويحمل بين يده رأس الولد القتيل.

قال له القاضي:

هيا يا هذا أرفع رأسك وقل لي ما حكاية هذا الذي بين يديك.

رفع الرجل رأسه فإذا به صديق التاجر الذي كان قد ائتمنه على ابنه يوم أن كان مريضًا وأرسله معه ببضاعة ليبيعها في قرية من القرى المجاورة، ولمّا عاد ذلك الصديق،زعم أن الولد قد تاه عنه في الطريق ومضى على هذه الحادثة أكثر من ثلاثة شهور، وقد بحث التاجر المسكين عن ابنه في كل مكان فلم يجد له أثرًا، فحمد الله وفوض إليه أمره فما أصابه.

عندها تهلل وجه حمد، وشكر الله في نفسه وقد ظهرت براءته.

قال القاضي للمتهم:

قل لي يا هذا ماذا فعلت ولا تكذب.

أقر الرجل بأنه من قتل الولد ونهب ماله وأرسل الحمار في الغفار وكذب على صديقه..

قال القاضي متعجبًا:

سبحان الله... حسنًا قل لي ولماذا أتيت بعد كل هذه المدة وأنت تحمل دليل إدانتك بين يديك).

قال الرجل وهو يأكله الندم:

نعم، عدت لأن الله لن يرضى بظلمي لهذا الرجل الطيب الذي طالما أحسن إلي وأنا خنته.

وأشار إلى التاجر والد القتيل.

ثم واصل الحديث وقال:

لقد مكثت كل هذه المدة وأنا خائف أترقب بأن يكشف أمري، وها قد كُشف، لقد عدت اليوم من أسفاري كالعادة، فأنا تاجر متجول، ولمّا كنت عند مدخل القرية حيث مرقد الأغنام الذي تجمع فيه للراعي كل صباح وجدت سنبلة ناضجة منتصبة في وسط المرقد،قلت في نفسي:

يا الهي..أمعقول هذا!سنبلة في هذا المكان ولم تتعرض لها أي من الأغنام..إنه لأمر عجاب،والله لأقطعنّها حتى يراها أهل القرية فيصدقون قولي، ولمّا وصلت وجدت جماعة من أهل القرية فصاحوا بي يا فلان لقد وجد اليوم ناهب وقاتل ابن صديقك،فأحسست بخليط من الراحة والخوف، ثم تماسكت وأبديت لهم السرور بما قالوا وقلت لهم دعوني أريكم شيئا عجبا قالوا:

ما هو؟

قلت لهم: لقد وجدت كذا وكذا.

قالوا:حسنا هات ما عندك؟

ولمّا أدخلت يدي في متاعي وأخرجتها فإذا برأس الولد بين يدي..فامسكوني وأتوا بي إليك.

حكم القاضي بالقصاص على القاتل، وطلب من التاجر وأهل القرية أن يعتذروا من حمد ، ففعلوا،ولمّا ظهرت برئته وهم بالذهاب أصر التاجر عليه أن يذهب

معه إلى بيته،ولكنه شكره واعتذر منه وغادر القرية في الحال وبات ليلته في العراء يتوسد الثرى ويلتحف السماء.

العودة

تبسم الفجر ضاحكاً من شرقه، نصب أعلامه على منازل أفقه،فانطوى نشر الليل، وكف من غمره الذيل، وارتفعت الحجب، وتأججت نار الشهب، واقتنص باز الضوء غراب الظلام، وفضّ كافور النور عن الغسق مسك الختام، وشردّ الصبح عن الليل فاتضحت سطوره البيض في ألواحه السود، وفلت جيوش الدجى، وحرك النهار منه ما سجى وجنح جنحه إلى الرحيل، نهض من نومه وواصل المسير حتى انتهي به المطاف إلى مشارف مضارب بدو ترقد في بطن واد قد أحاطت به من جميع أقطاره كثيرٌ من الأدواح الباسقة الملتفة، والصخور العالية، ورأي على مبعدة منه مغارة بين الصخور، فدخلها، وما أمعن فيها إلا قليلًا حتى احتجب عنه وجه الشمس وراء تلك الصخور الشامخة والأدواح العالية،ألقى بنفسه على أرضية المغارة، غشيه النعاس ،رأى جده الشيخ الخفيان في ثياب ناصعة البياض، أشار عليه بأن هنا خاتمة المطاف.

أشرقت الدنيا،أخذت الكائنات تدعو إلى اليقظة والعمل،كشف ضوء الشمس عنه وهو يقترب من المضارب،هرع إليه جماعة من أهلها،أدركوا أنه غريب،استضافوه،ظهرت عليه علامات الصلاح والورع،والفراسة النافذة،ولعل غير قليل من الكرمات، كقراءة أفكار القوم من حركاتهم وسكناتهم وملامح وجوههم، وإدراك ما يجول بخواطرهم، كأن وسوست نفس أحدهم بشيء من الريبة،فيحدثه بما في نفسه، أو يخبره بما يزيل عنه وساوسه.

أقام مسيدًا صغيرًا في طرف المضارب، في كل عصر يغص المسيد بأهل المضارب، حتى إذا قدم المتأخر لم يجد له موضعًا، ومع ذلك يجد له مكانًا بأمر الله، وكرامة له، ويحبو كل منهم على ركب بعضهم خواصهم وعوامهم، ولا يستنكف أحد من ذلك وقد اجتمعت قلوبهم في جو روحي فريد وهم يستمعون إلى دروس الشيخ ومواعظه.

الوقت ليل، الكون ساج نائم، لا نأمة تُسمع ولا حركة تُرى، لا يُحس سوى الركود والإغفاء، والسكون الشامل، والظلام الصافي، والهدأة الناعسة، في مثل هذا الوقت وقد هجع الخلق،يخرج الشيخ إلى مغارته،يمكث فيها،يذكر الله ويسبح بحمده،ولا يعود إلا عند طلوع الفجر ليدرك صلاة الصبح مع الجماعة،ثم يجلس في مصلاه متأملًا سابحًا في تفكيره، لا يكلم أحدًا ولا يكلمه أحد، حتى تشرق الشمس،فإذا أقبل الضحى عكف يدون من علم ،ما شاء الله له أن يدون،فإذا انتصف النهار وصلى الظهر، جلس للناس ليقضي بينهم،فإذا حان وقت العصر وفرغ من صلاته، جلس إليهم ثانية ليقرضهم ما وهبه الله من علم ومعرفة،فإذا فرغ من صلاة المغرب،جلس إلى نفسه وربه يناجيه بالذكر، ويهمس بالدعاء والتسبيح، ويختم يومه بصلاة العشاء قبل أن يأوي إلى خلوته في المغارة.

خرج ذات يوم إلى الغابة كعادته،ليجمع الثمار الجافة من (لالوب وقرض) فهو لا يقتات علي طعام غيرها البت، رأي أمرًا عجبا أن ثعبانًا يعيش بطوله في جذع

الشجرة دون أن يكون هنالك منفذًا يشير إلى دخوله وخروجه منها بل هو ماكث فيها دون حراك، فقال في نفسه:

سبحان الله إن الله جّل جلاله يرزق هذا الثعبان وهو كائن في مكانه.

فكيف بي، تالله لانقطعن لعبادته جلّ جلاله ولا انشغل برزق قدره لي.

انقطع للعبادة في مغارة،يعتصره الجوع، يغلبه النعاس يغفو ساعة يستيقظ،يحس بالشبع والارتواء، يسرى النشاط في أوصاله.

مرت الأيام والشهور، وهو في مغارته، لا أحد يعرف عنه شيئًا، خرج ذات ليلة من المغارة ليتمشى،والقمر يفيض أمنًا وسلامًا على الوادي،عثرت إحدى رجليه على شيء مدفون في الأرض، كشف عنه التراب،وجده جرة مليئة بالذهب، قال في نفسه:

هذا قد يكون ذهب شخص ما خبأه وتاه عنه،فلا ينبغي لي أن أخذه،إنه ليس من حقي.

أعاد الجرة كما هي،انصـرف لحال سبيله،وهو مستغرق في التأمل في ملكوات الله، تربّص به نهاب ملثم، صاح به بأن يلقي إليه بما عنده من المال، فقال له:

أنه فقير ليس لديه مال حتى يعطيه إياه ولكن ما دام هو يطلب المال،عليه أن يأخذ جرة الذهب التي في أسفل الصـخرة وأشار له عليها.

هرول الأخير إلي حيث الجرة،أخرجها،فتحها،وجدها مليئة بالعقارب والثعابين،حملها غاضبًا مضطربًا،أتى بها وألقى ما فيها تحت قدميه وولى هاربًا، تناثرت الجرة ذهبًا.

قبل طلوع الفجر بسويعات والناس يغطون في نوم عميق، حمل الشيخ الجرة،وتسلل تحت خيوط الفجر المتسارعة مع نسيمات الصباح إلى داخل المضارب،سمع النهاب فيما يسمع النائم، صوتًا صارخًا ينادينه باسمه، ثم ما لبث أن رأي رجلين وثبا عليه وشدا عنقه بسلسلة من حديد،وقد أخذ كلٌّ منهما بطرفٍ،وهو يهمهم بكلماتٍ مبهمة،فيَقرعه أحدهما على رأسه ويقول له: ذق جزاء صنيعك.

أدركه من الهول والرعب ما أيقظه من نومه، ليسمع قرع نعال عند باب خيمته،ارتعدت فرائصه،أمتقع لونه،استجمع قواه،سار إلى الباب،خرج ليرى ماذا هناك؟ جحظت عيناه عندما أدرك أن الرجل الذي أساء الأدب معه في وسط الغابة هو الشيخ نفسه، وقبل أن ينبس بكلمة، دفع إليه الشيخ بالجرة وقال له: استطيع أن أقول لك يا بني إن السعادة ينبوعٌ يتفجر من القلب لا غيث يهطل من السماء، وإن النفس الكريمة الراضية البريئة من أدران الرذائل وأقذارها، ومطامع الحياة وشهواتها، سعيدةٌ حيثما حلت وأنَّى وُجدت، فإن أردت السعادة فلا تسأل عنها المال والنّشب، بل أسأل عنها نفسك التي بين جنبيك، فهي ينبوع سعادتك وهنائك إن شئت،ومصدر شقائك وبلائك إن أردت.

بكى النهاب وسقط مغشيًا عليه من شدة البكاء،ولما أفاق كان الشيخ قد اختفى ولم يراه أحد منذ ذلك اليوم.

مضى يلتمس طريقه إلى مِلطاس،يعرف موقعها بالرائحة وحساب الخطوات ودرجة وضوح الأذكار والإلهام الباطني، في ظلمة الفجر العاشقة، في الممر العابر بين الموت والحياة، على مرآى من النجوم الساهرة، على مسمع من حيف الريح،وصل إلى هناك، مغارة جده تناديه، تهمس في قلبه أن أطرق، أدخل، فز بالنعيم والهدوء الأبدي فدخلها،تمدد فيها، خالطت جفنه سِنة الكرى،رأي على من البعد وجهًا يبتسم له ويدنو منه رويدًا رويدًا، فأَرفل نحوه حتى بلغه،فإذا هو وجه جده الخفيان يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء، سأله ما فعل الله به،أخبره بأن حاسبه حسابًا يسيرًا ثم غفر له، وها هو يرفل فيما أعده الله لعباده الصالحين في جنته من النعيم، ثم ابتسم له ابتسامةً علم منها أنه قد ألمَّ بما أضمره في نفسه من حبه للقاء ربه،فأسلم الروح إلى بارئها،وقد بردت عظامه تحت صخور مِلطاس وجنادلها، إلى جواره جده وأبيه،وأصبح له مزارًا عرف بمزار صاحب ملطاس.

***

نبذة عن المؤلف

الاسم: أحمد سليمان أبكر

الدولة: السودان

المؤلفات:الطريق إلى قلع النحل/أوائل في السودان_مكتبة النور الإلكترونية/ الريف المكنون_مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة/أهل القرية(قصة طويلة)_دار قصص وحكايات للنشر/ الفلاح العاشق(رواية قصيرة)_دار قصص وحكايات للنشر/ أغصان في مهب الريح (رواية) دار رقمنة للنشر العربي(استكولهم_السويد)/البدوي الطموح(رواية) دار رقمنة للنشر العربي(استكولهم_السويد)/الشماطيط (مجموعة قصصية) دار العهد للنشر والتوزيع/أحد مؤلفي كتاب آمال(خواطر)_ وكتاب طيور في سماء الإحساس (خواطر)_ وكتاب على جناح الحلم(مجموعة قصصية)_دار اللوتس للنشر

الحر/ أحد مؤلفي كتاب الهاربة من سالم (مجموعة قصصية)_دار كتبنا للنشر/أحد مؤلفي كتاب حارة الجميزة لا تعرف النوم(مجموعة قصصية) دار الفنار للنشر/ أحد مولفي كتاب مبدعون١(مجموعة قصصية) دار فكرة للنشر/ أحد مولفي كتاب مبدعون٢ (مجموعة قصصية) دار فكرة للنشر/أحد مؤلفي كتاب مرال(مجموعة قصصية) دار فينيكس للنشر/ أحد مولفي كتاب أحاديث الخميس (مجموعة قصصية) دار المثقفون العرب للنشر/ أحد مؤلفي كتابي كيف نجونا من ٢٠٢٠م وتلك القصص (مجموعتان قصصيتان) دار بوك بوتيك للنشر/ أحد مؤلفي كتابي من زوايا الحياة وباليت(مجموعتان قصصيتان) دار أركان للنشر الإلكتروني/ أحمد مؤلفي كتابي كرة اللهب وفسحة الأمل(مجموعتان قصصيتان) دار رقمنة للنشر العربي(استكولهم_السويد).

The /Similes in Holy Quran/Enlish For All Levels

Basic Concepts of Islam_ LAMBERT Academic Publishing.

Sudanese popular /Stories of Sudanese parables

Sudanese Heritage Tools_JustFiction /puzzles Edirion.

كتب أخرى لم تنشر بعد والبعض تحت التأليف..